المرأة والرجل فى إطار الزواج

أولاً : المرأة والرجل

يقول الحق سبحانه فى كتابه الكريم :

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (آل عمران : ٣٥ : ٣٦) .

كلمة إنى وضعتها أنثى التى قالتها امرأة عمران تحسّر على أنها لم تضع ذكراً أى أن الوليد الذى جاء لا يؤدى الغرض الذى وُهِبَ من أجله ، لأن امرأة عمران نذرت ما فى بطنها لله سبحانه وتعالى ، وكيف تستطيع مريم أن تؤدى الخدمة فى المعبد وهى أنثى ؟

وامرأة عمران تقول إن الرجل أفضل من المرأة فى ذلك ، فيقول لها الله سبحانه إن هذا هو منطق الدنيا الخائب ، ويضيف الحق سبحانه ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ﴾ أى أنّ الأنثى التى جاءت أفضل من الذَكَر الذى تمنيته ، وكأنما الأنثى لها مكانة أكبر مما تظنين ، فلا تقولى أن الله قد أعطانى أنثى ولم يعطنى ذكراً لأن الله سبحانه وتعالى هو الخالق الذى لا خالق غيره .

يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (الزخرف : ١٧) .

ويقول الحق تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (الشورى : ٤٩) إن الحق سبحانه وتعالى خلق كلا من الرجل والمرأة لمهمة معينة وأعطى كلا منهما مقومات هذه المهمة .

فإعطاء القوامة للرجل ليس تفضيلاً من الله للرجل وإنما لأن الله خلق فى الرجل

مقومات هذه القوامة ، وفى نفس الوقت لا يستطيع الرجل أبداً أن يقوم بشىء مما تستطيعه المرأة من العطف على الأطفال والحنان فى الأسرة والسكن والمودة .

وقد وضع الله فى قلب المرأة قُدرة هائلة على الحنان والعطف لتستطيع أن تتحمل تربية الأطفال ، بعكس الرجل الذى يضيق بأطفاله ولا يستطيع أن يتحمل لأنه خُلِق لمهمة أخرى هى الكدح والعمل وتوفير نفقات الأسرة والقوامة على الأسرة .

obeikan.com

ثانياً : الرجال قوامون على النساء

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ (النساء : ٣٤) بعض الناس يفهمون معنى القوامة خطأ ، هم يفهمونها على أنها تفضيل الرجال على النساء . والحقيقة تختلف عن ذلك الفهم كلية ، إن من يقوم على أمر معين فهو يجعل كل حركته من أجل ذلك الأمر .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ (الرعد: ٣٣) أى أن الحق سبحانه وتعالى يرعى كل نفس ، ويوفر لها رزقها ويدبر أمور حياتها .

والقيام ضد القعود ، والرجال قوامون يعنى متحركين فى الحياة من أجل كفالة النساء ورعايتهن وتوفير متطلبات الحياة من مال وطعام لهن .

فالقيام هنا معناه المسئولية عن توفير متطلباتها هى والأولاد .

وقول الحق سبحانه ﴿ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ليس فيه تحديد من هو المفضَّل ، ومن هو المفضل عليه ؟ فكأن للرجال تفضيلاً فى أمور معينة ، وللنساء تفضيلاً فى أمور أخرى ، كلاهما مُفضّل بما يضمن له آداء دوره فى الحياة .

وأول ما نلتفت إليه فى قوله سبحانه : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾ (النساء: ٣٤) أن بعضهم لم يفسروا الآية إلا على الرجل وزوجته على الرغم من أن الآية تكلمت عن مطلق رجال ومطلق نساء .

ولهؤلاء نقول : ليست الآية مقصورة على الرجل وزوجه ، فالأب قوَّام على البنات ، والأخ قوام على أخواته .

والقوام هو المبالغ فى القيام ، وقد جاء الحق سبحانه هنا بالقيام الذى فيه تعب ، وعندما تقول : فلان يقوم على القوم ، أى لا يرتاح أبداً .

إذن : فلماذا نأخذ القوامة هنا على أنها كَتْم لأنفاس المرأة ؟

لماذا لا نأخذها على أنها سعى فى مصالحهن ؟ فالرجل مكلف بمهمة القيام على النساء ، أى أن يقوم بأداء ما يصلح الأمر .

فوجه تفضيل الرجل أنه القادر على الكدح والتعب والضرب فى الأرض والسعى على المعاش ، حتى يكفل للمرأة سبل الحياة اللائقة عندما يقوم برعايتها .

ويجب على المرأة أن تفرح بذلك ، لأنه سبحانه أعطى المشقة والتعب للجنس المؤهل لذلك ، لأن الكسب والسعى يحتاج إلى القوة والعزم والشدة . أما المرأة ففيها : الرقة والحنان والعطف والوداعة .

إذن : فقوامة الرجل جاءت لراحة النساء ومنعت عنهن المتاعب ، فلماذا تحزن المرأة منها ؟

والحق سبحانه يعطينا حيثية هذه القوامة ، فيقول : ﴿ **بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ** ﴾ (النساء : ٣٤) . فالحق فضَّل الرجل وميّزه بالقوامة على المرأة بصفات الرجل الخِلْقية التى جعلت للرجل حق القوامة على المرأة ورعايتها والقيام بمصالحها .

وكذلك كانت له القوامة بالمال ، والمال يأتى نتيجة الحركة ونتيجة التعب .

والمتمول هو الذى يتحرك فى الحياة حركة قد تكون لنفسه ، وإن اتسعت حركته فستكون لأبنائه ، وإن اتسعت أكثر فستكون لأحفاده .

فمال الرجل سواء كان أباً أو زوجاً ليس له وحده ولكنه له ولمن يعولهم من نساء وأولاد ، أما مال المرأة فلها وحدها ، ورغم هذا فالرجل مطالب بالإنفاق عليها ، فهى لن تصرف أو تنفق من دخلها على نفسها .

ثالثاً : حكمة الزواج

إذا نظرنا إلى كلمة (امرأة) وجدنا أنّ لها مقابلاً ، وهو (رجل) فالمرأة (أى الأنثى) ، والرجل (أى الذكر) لو نظرنا إليهما لوجدنا أن هناك جنساً يجمعهما وهو الإنسان ، والجنس هو ما يمكن أن ينشأ منه نوعان ،أى ينشأ منه أفراد متساوون .

فنحن نقول : إن الإنسان (جنس) لأنه ينشأ عنه نوعان هما الذكر والأنثى ولا اختلاف فى تكوينهما الحقيقى .

ونحن إذا نظرنا إلى جنس ينقسم إلى نوعين فيجب أن نقول : إنه لم ينقسم إلى نوعين إلا لأداء مهمتين ، وإلا لو كانت المهمة واحدة لظل الجنس واحداً ، وانقسامه إلى نوعين يدل على أن كل نوع منهما له خصوصية فى ذاته ، والجنس يجمع لهما معية خصوصية .

ضربنا فى الماضى مثلاً بالزمن ، فالزمن جنس يشمل النهار والليل ، النهار نور ، والليل ظلام ، وهما ظاهرتان قد يظن البعض أنهما متعارضتان أو متناقضتان :

نقول له : لا النور لم يأت ليعارض الظلام ، ولا الظلام يعارض النور . ولذلك لا يصح أن نقارن بين نور وظلام لأن لكل واحد منهما مهمة يؤديها لا يستطيع الآخر أداءها .

فالزمن ينقسم إلى ليل ونهار ، والزمن بجنسيته له معنى وهو أنه ظرف تحدث فيه الأنهار ، هذا هو المعنى المشترك لليل والنهار فكلاهما يشترك فى هذا المعنى .

وبعد ذلك ينقسم الزمن إلى نوعين (ليل ونهار) لماذا ؟ لأن النهار له مهمة ، والليل له مهمة أخرى .

والحق سبحانه وتعالى حينما يعرض هذه القضية يعرضها عرضاً واضحاً : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا** ﴾ (غافر : ٦١) إذن فقد جاءت علة وجود الليل وهى السكن والهدوء والراحة والاستقرار ، والنهار للكدح والعمل .

إذن نحن لا نستطيع أن نقول إن الزمن كنهار دائم ينفع أو كليل دائم ينفع .

والحق سبحانه وتعالى يقول عن ذلك :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ (القصص : ٧١ ، ٧٢) إذن فالحق سبحانه وتعالى من رحمته جعل الزمن نوعين ، وكل نوع منهما يؤدى مهمة معينة ، فلو أردنا أن نشبه الليل بالنهار أو النهار بالليل نكون قد خرجنا بالنوعين عما قد خلقهما الله من أجله .

نفس الشيء بالنسبة للرجل والمرأة فالرجل والمرأة نوعان لجنس هو (الإنسان) فكأن هناك أشياء تتطلب من كل نوع كإنسان ، وبعد ذلك هناك أشياء تتطلب من الرجل كرجل ، ومن المرأة كامرأة ، بحيث نستطيع أن نقول أنهما كنوعين من الجنس لهما مهمات : مهمات مشتركة كجنس ، ومهمات مختلفة كنوعين .

والحق سبحانه وتعالى حينما عرض قضية الليل والنهار ، وهى قضية كونية لا يختلف فيها أحد ، يأتى الحق سبحانه فى هذه القضية ليقدمها إيناساً بالقضية التى يمكن أن يُختلَف فيها ، وهى قضية الرجل والمرأة فقال سبحانه : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ (الليل : ١ : ٤) .

نوعان للزمن ، ونوعان آخران يمكن أن يختلف فيهما فكأن لليل مهمة ، وللنهار مهمة ، وكان تبعاً لذلك للرجل مهمة ، وللمرأة مهمة : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ .

ويأتى الحق سبحانه وتعالى إلى القضية العامة فيقول : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾ (النساء : ٣٢)

إذن لا يصح أن يتمنى الرجل أن يكون مرأة ولا المرأة أن تكون رجلاً ، ولذلك قال رسول الله ﷺ « لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء ولعن الله المتشبهات من النساء بالرجال » .

لأن ذلك خروج عن النوعية المقصودة . وكذلك كل أزواج الحياة . ومن هنا يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

(الذاريات : ٤٩)

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ (النساء : ١) أى خلق من جنسها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءاً إذن فحكمة وجود الزوجية فى كل من الإنسان والنبات والحيوان التكاثر ، والتكاثر فى هذه الأشياء يهدف إلى حفظ النوع .

وقد بين الحق سبحانه وتعالى أن لكل نوع من الجنس مهمة يؤديها وهذه المهمة يجب أن يقف عندها ، وإذا ما وقف عندها أمكن لكل نوع أن يؤدى مهمته دون تعارض ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ بل بتساوٍ وتعاطف ﴿ وكل فى فلك يسبحون ﴾ .

والذى يفسد الأمر أنَّ نوعاً يريد أن يُغير على حقوق نوع آخر أو واجباته ، ومن هنا يحدث الفساد فى الكون إذن فلكل من المرأة والرجل دور فى الحياة خلقه الله ليؤديه ومن حكمة الله سبحانه وتعالى أن خلق الزواج لكى يتعاون الرجل والمرأة فى الحياة ويكمل كل منهما الآخر .

فالمرأة والرجل مثل الليل والنهار يختلفان فى طبيعة المهمة فى الحياة ، ولكنهما مع ذلك يتكاملان فى أداء المهمة أى يكمل أحدهما الآخر .

فالرجل له وظيفته فى السعى على الرزق ورعاية زوجته وأولاده وتوفير أسباب الحياة لهم .

والمرأة لها مهمتها فى رعاية البيت وإنجاب الأولاد وتكون سكناً للزوج تمسح عنه الشقاء . ولذلك فإن الحق سبحانه يقول : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(الروم : ٢١)

هكذا حدد الحق سبحانه وتعالى المهمة التكاملية للمرأة والرجل فلا الرجل يصلح لمهمة المرأة فى إنجاب الأطفال ورعاية البيت وتربية الأولاد والعناية بهم ، ولا المرأة

مهمتها الأساسية أن تسعى فى سبيل الرزق لتوفر لقمة العيش للرجل ، هذا هو القانون السائد الذى وضعه الحق سبحانه فى الكون كله تلك هى سُنّة الله فى الكون بصرف النظر عن الإيمان وعدم الإيمان ، ومن تمام الحياة أداء الإنسان لمهمته فيها ، فلابد أن يقوم كل إنسان بمهمته ، أما إذا انقلبت الموازين ورفض بعض الناس أداء أدوارهم فى الحياة ، أو حاولوا القيام بأدوار أخرى هم غير مكلفين بها ، لم يؤهلهم الله تعالى للقيام بها ، فى هذه الحالة لابد أن يحدث الشقاء والمشاكل والتعاسة والفوضى فى الحياة .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ (يس : ٣٦) وفى قصة نوح : وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ (الحجر : ٢٢) إذن فالزواج هو سُنّة من سنن الله فى الكون ، خلقه لإعمار الكون واستمرار الحياة وبقاء الأنواع .

إنّ التزاوج موجود فى الإنسان وفى البنات وفى الحيوان وحتى فى الجماد ، وهدفه التكاثر والبقاء إلى أن يأذن الله سبحانه وتعالى بالانتهاء .

والزواج بين الرجل والمرأة تترتب عليه مسئوليات اجتماعية كبيرة ، ولذلك يلزم للزواج أن يقام على أسس قوية ومتينة لكى ينجح ويستمر ، وليس هناك أقوى ولا أبقى من أساس الإيمان ولذلك قال الرسول ﷺ « تنكح « النساء » المرأة : لأربع : لمالها وجمالها وحسبها ودينها ، فأظفر بذات الدين تربت يداك » .

هناك من يدخل على الزواج بغير منطق الإسلام ، فتجده لا يختار من تشاركه حياته بمقياس الدين ، ولا يضع نصب عينيه شروط اختيار الزوجة الصالحة التى جاءت فى هذا الحديث الشريف :

فالمطلوب ألا تنظر إلى زاوية واحدة فى الجمال ، بل انظر إلى كل الزوايا ، فلو نظرت إلى الزاوية التى تشغل الناس ، الزاوية الجمالية ، لوجدتها أقل الزوايا بالنسبة إلى تكوين المرأة ، لأن عمر هذه المسألة « شهر عسل » وتنتهى ، ثم بعد ذلك تبدو المقومات الأخرى .

فإن دخلت على مقوم واحد ، وهى أن تكون جميلة فأنت تخدع نفسك ، وتظن أنك تريدها سيدة صالون .

هذه الصفة أمدها بسيط فى عمر الزمن ، لكن ما يبقى لك هو أن تكون أمينة ، أن تكون مخلصة ، . أن تكون مدبرة .

ولذلك فالفشل ينشأ فى الأسرة من أن الرجال يدخلون على الزواج بمقياس واحد هو مقياس جمال البنية ، وهذا المقياس الواحد عمره قصير ، يذهب بعد فترة .

وبعد ذلك تستيقظ عيون الرجل للتطلع إلى نواحى الجمال الأخرى ، فلا يجدها ، فيحدث الفشل ، لذلك لابد أن تأخذ مجموعة الزوايا كلها .

وخير الزوايا أن يكون لها دين .

وكذلك المقياس بالنسبة لقبول المرأة للزوج ، فخير الزوايا أن يكون له دين ، فقد قال رسول الله ﷺ : « إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » .

وعندما استشار رجل سيدنا الحسين بن على ـ رضى الله عنه ـ قال : زوِّجها من ذى الدين ، إن أحبها أكرمها ، وإن كرهها لم يظلمها .

إذن : فالدين يرشدنا إلى أنه لابد أن ننظر إلى المسألة التى سيكون لها عمر طويل فى الحياة الزوجية الممتدة .

رابعاً : صفات الزوجة المسلمة

أفضل صفات المرأة المسلمة حين تكون زوجة تلخصها لنا فى إيجاز بليغ أم إياس فى نصائحها ووصاياها لابنتها قبيل زواجها إنه تقول لابنتها .

« أى بنية : اعلمى لو أنّ امرأة استغنت عن الزوج لِغِنَى أهلها لكنت أغنى الناس ، ولكنّ النساء للرجال خُلِقن ولهن خُلِقَ الرجال ، ويا ابنتى احفظى عَنّى عشر خصال تكن لك ذخراً :

أما الأولى والثانية : فالمعاشرة له بالرضا والقناعة ، وحُسْن السمع له والطاعة .

وأمّا الثالثة والرابعة : فالتفقُّد لموضع أنْفِهِ وموقع عينيه فلا تقع عينه منكِ على قبيح، ولا يَشمَّن منكِ إلا أطيب ريح .

وأما الخامسة والسادسة : فالهدوء عند منامه ، والتفقد لوقت طعامه ، فإنّ مرارة الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مغضبة .

وأما السابعة والثامنة : فالاحتفاظ بماله ، والإرعاء على حشمه وعياله .

وأمَّا التاسعة والعاشرة : فإيّاك أن تعصى له أمرًا ، أو تفشى له سرًا فإنّكِ إن عَصيتِ امرَه أوغَرتِ صَدْرَه ، وإن أفشيتِ سِرَّهُ لم تَأمَنى غَدْرَه وأعظكِ بعد ذلك من الفرح إن كان ترحاً ومن الترح إن كان فرحاً .

خامساً : نعيم المرأة الصالحة

قالت أم سلمة رضى الله عنها لرسول الله ﷺ : أخبرنى يا رسول الله عن قول الحق عز وجل : ﴿ حُورٌ عِينٌ ﴾ فقال رسول الله ﷺ « حور » معناها بيض ، و«عين» معناها : ضخام شعر . . والحوراء فى منزلة جناح النسر قالت : أخبرنى يا رسول الله عن قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ فقال ﷺ « صفاؤهن كصفاء الحر » أى اللؤلؤ الحر ، الذى فى الأصداف لا تمسسه الأيدى ، وقالت أم سلمة : يا رسول الله أخبرنى عن قوله تعالى : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ قال الرسول ﷺ : «خيرات الأخلاق حسان الوجوه فقالت فأخبرنى يا نبى الله عن قوله تعالى ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾ فقال ﷺ : رقتهن كرقة الجلد الذى فى داخل البيضة فيما يلى القشرة وقالت أم سلمة أخبرنى يا رسول الله عن قوله تعالى ﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ فقال رسول الله : « هن اللاتى قبضن فى دار الدنيا عجائز رمصًا شمطًا خلقهن الله يوم القيامة بعد الكبر فجعلهن عذارى عُرُبًا متعشقات محببات ، أتراباً على ميلاد واحد أى فى سن واحدة فقالت أم سلمة : يا رسول الله : أنساء الدنيا أفضل أم الحور العين ؟ فقال النبى ﷺ : « بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة » فقالت أم سلمة يا رسول الله : وبم ذلك ؟ فقال ﷺ : بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن لله عز وجل ألبس الله وجوههن النور وأجسادهن الحرير ، بيض الألوان ، خضر الثياب، صفر الحلى مجامرهن الدر ، وأمشاطهن الذهب يقلن :

نحن الخالدات ، فلا نموت أبداً ، ونحن الناعمات ، فلا نيأس أبداً ، ونحن المقيمات فلا نظعن أبداً ، ونحن الراضيات ، فلا نسخط أبداً ، طوبى لمن كُنَّ له وكان لنا » .

فقالت أم سلمة : يا رسول الله : المرأة منا قد تتزوج الزوجين والثلاثة والأربعة ثم تموت فتدخل الجنة ، فمع أى الأزواج تكون ؟ فقال النبى ﷺ : يا أم سلمة إنها تُتخيَّر ، فتختار أحسنهم خُلقاً فتقول : يارب : إنّ هذا كان أحسن خُلُقا معى ، فزوجنيه . يا أم سلمة : إنّ حُسن الخُلق بخيرى الدنيا والآخرة .

والمرأة الصالحة هى المرأة التى استقامت على المنهج الذى وضعه لها حسن خلقها ، فما دامت هى صالحة تكون قانتة ، والقنوت هو دوام الطاعة لله ، ومنه قنوت الفجر الذى نقنته .

والمرأة القانتة خاضعة لله ، إذن فحين تكون خاضعة لله تلتزم منهج الله وأمره فيما حكم به من أن الرجال قوامون على النساء .

والحق سبحانه يقول : ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ (النساء : ٣٤).

فوصف الصالحات بأنهن حافظات للغيب يدل على سلامة العفة ، فالمرأة حين يغيب عنها الراعى لها والحامى لعرضها كالأب بالنسبة للبنت ، والابن بالنسبة للأم ، والزوج بالنسبة للزوجة .

فكل امرأة فى ولاية أحد لابد أن تحفظ غيبته ، فتحافظ على عرضها وعلى مال زوجها فى غيبته ، فتنظر المنافذ التى تأتى منها الفتنة وتمتنع عنها ، فلا تخرج إلى الطرقات إلا لحاجة ماسة أو ضرورة ، كى لا ترى أحداً يفتنها أو يُفتن بها ؛ لأن هذه هى مقدمات الحفظ .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ أى : بالمنهج الذى وضعه الله لأن تحفظ المرأة غيبة زوجها ، وهى لا تحفظه بمنهج من عندها ، بل بالمنهج الذى وضعه خالقها وخالقه .

ومنهج الله فى هذا ألا تعرض المرأة نفسها إلى إدراك ، فينشأ عن الإدراك وجدان ، ثم نزوع ، فكل شعور فى الإنسان له ثلاث مراحل :

مرحلة أن يدرك ، ومرحلة أن يجد فى نفسه ، ومرحلة أن ينزع ، أى يحول الأمر إلى سلوك .

فالمرأة لكى تكون حافظة للغيب عليها أن تغض بصرها إن اضطرت للخروج .

ولذلك قال سبحانه : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ (النور : ٣١) .

فالمرأة إن لم تغض النظر يحدث التفات عاطفي ، ولذلك يتدخل التشريع من أول الإدراك ، لأن الذى خالقنا علم أننا إن أدركنا جمالاً ، نظرنا له ، وستتولد عندنا مواجيد بالنسبة للأشياء التى نراها ونشتهيها ، وساعة يوجد إدراك واشتهاء ، والاشتهاء لا يهدأ إلا بنزوع ، فيبين لك الشرع :

أنا رحمتك من أول الأمر ، وتدخلت من أول المسألة ، أى من أول الإدراك ، وكل شىء تدخل فيه عند النزوع إلا المرأة فقد تدخلت فيها من أول الإدراك ؟ لذلك أمر الحق سبحانه الرجل أن يغض البصر ، وكذلك أمر المرأة .

لماذا ؟ لأنك إن أدركت فستجد ، وإن وجدت فستحاول أن تنزع ، ونزوعك سيكون عربدة فى أعراض الناس ، وإن لم تنزع فسيبقى عندك كبت .

لذلك حسم الحق سبحانه المسألة من أولها وقال : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ (النور : ٣٠ ، ٣١) .

سادساً : تعدد الزوجات فى الإسلام

هذا الموضوع يثير جدلاً واسعاً عند الناس ، وخصوصاً عند غير المسلمين .

إن الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ (النساء : ٣) .

لو نظرنا إلى مسألة تعدد الزوجات فى الإسلام نجدها ليست واجبة ، ولكنها مُباحة فما معنى ذلك ؟

أى أن الإسلام لا يفرض ولا يوجب على الرجل الزواج من أكثر من امرأة ، إنه يسمح بذلك فقط إذا حدث ، وهو لا يحدث غالباً إلا للضرورة .

إن التعدد لا يحدث إلا إن كان هناك زيادة فى العدد . والهدف من مسألة تعدد الزوجات هو عدم بقاء أى امرأة مسلمة فى المجتمع بدون زواج ، كى يسلم المجتمع من الانحرافات والمرأة حين تقبل أن تكون زوجة ثانية فإنها لا تفعل ذلك إلا إذا كانت لم تجد فرصة لأن تكون الزوجة الأولى . لقد اختارت أفضل الفرص المتاحة أمامها ، ورأت أنه من الخير لها أن تكون زوجة ثانية أحسن من أن تبقى بدون زواج ،إذن فتعدد الزوجات مشروع أساساً للقضاء على مشاكل بعض النساء ، وللقضاء على ما يمكن أن يحدث فى المجتمع من انحرافات لو بقى عدد كبير من النساء بغير زواج .

وهذا التعدد كثيراً ما يكون حافظاً للزوجة الأولى وللزوجة الثانية .

وهناك نقطة مهمة لابد أن تتذكرها المرأة وهى أن الإسلام كَفَل لها حرية أن تشترط على زوجها ساعة عقد الزواج ألا يتزوج امرأة أخرى .

إن من حق المرأة اشتراط ما تشاء فى عقد الزواج ، لكننا لم نسمع أن امرأة واحدة فعلت ذلك .

إننا لو نظرنا إلى واقع الحياة لوجدنا أن عدد النساء دائماً أكبر من عدد الرجال نظراً لأحداث الحياة .

وما يحدث فيها من معارك وحروب ، وتنافس شديد بين الرجال فى أثناء سعيهم وراء الرزق ، وحياة الرجال وسعيهم الدائم وراء الرزق يجعلهم يتعرضون لمخاطر أكثر من النساء .

فلو كان عدد النساء والرجال متساوياً فى البداية ، ثم حدثت حرب ، والحروب والمعارك يتحملها الرجال دائماً ، ويتعرضون فيها للموت أو للعجز ، فماذا تفعل النساء؟ اللهم إلا إن أردنا أن ينتشر الانحلال والانحراف فى المجتمع الإسلامى .

ومن الملاحظ أن جميع الأجناس التى خلقها الله وفيها تكاثر نجد أن عدد الذكور عادة أقل من عدد الإناث .

انظروا إلى الدجاج مثلاً ، وإلى النخل ، وكذلك الأنثى فى جميع الأجناس هى الأكثر عدداً .

وقد فعل الله تعالى ذلك لحكمة عظيمة ، ذلك أن الأنثى فى جميع الأنواع هى التى تعطى ، هى التى تعطينا الخير والإنتاج والثمر ، وهى التى تلد الأجيال الجديدة التى تعمر الأرض والحياة .

أما الذكر فمهمته هى التخصيب .

والذكر الواحد فى أى نوع يمكن أن يقوم بهذه المهمة بالنسبة لعدد من الإناث .

ثم إن الحق سبحانه وتعالى لم يلزمنا بمسألة التعدد هذه إنه الشىء المباح لنا الحرية فى أن نأخذ به أو لا نأخذ ولا إثم علينا .

إن الذى يسبب المشكلة هو عدم التزام بعض الرجال بالعدالة التى اشترطها الله على الرجل حين يريد الزواج من زوجتين فالإسلام يريد أن يحافظ على حقوق الزوجين فى ذات الوقت ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ (النساء : ٣).

ويقول جل شأنه : **﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾**

(النساء : ١٢٩)

إنّ الإحصاءات تقول إن المتزوجين من امرأتين لا تزيد نسبتهم على ٣٪ ، والمتزوجين من ثلاث زوجات هم واحد فى الألف ، أى رجل بين كل ألف رجل ، وأن الذى يتزوج أربع زوجات هو رجل واحد بين كل خمسة آلاف رجل ، وهى نسبة ضئيلة للغاية لا تمثل مشكلة فى المجتمع الإسلامى .

ونحن إذا نظرنا بعين فاحصة فى كل هذه الحالات من تعدد الزوجات لوجدنا أن هناك دائماً مشكلة دفعت الزوج إلى ذلك كأن تكون زوجته مريضة فيتزوج زوجة ثانية ، فهل من الأحسن أن يتزوج هذا الرجل مرة ثانية أم أن يذهب ليزنى مع أى امرأة ، كما أن الزوجة (المريضة) هل من الأفضل بالنسبة لها أن يتخلى زوجها تماماً ويتركها (الطلاق) وقد لا يكون لها من يرعاها ، أم الأفضل أن يبقى معها ليرعاها ويقوم على شئونها ؟

والمتأمل للحياة من حوله يجد أن تجربة الزواج الأبدى بين الرجل والمرأة قد جربها الكاثوليك وفشلت .

واضطرت الكنيسة الكاثوليكية لإباحة الطلاق لأنها وجدت أن أبدية الزواج تسبب مشاكل لا حصر لها ، وأن المجتمع لايمكن أن يستقر معها .

لقد أباحت الكنيسة الكاثوليكية للرجال أن يطلقوا زوجاتهم وأن يتزوجوا من أخريات ، ولو كانت الكنيسة استطلعت رأى النساء فى هذا القرار قبل اتخاذه لفضّل الكثير من النساء البقاء مع أزواجهن مع السماح لهن بالزواج من أخريات .

والكنيسة بسبب تعصبها لمبدأ باطل جعلها لا تقوم باستفتاء النساء فى هذه المسألة التى تهم حياتهن وتقرر مصيرهن ومستقبلهن .

والموضوع ليس مظهرياً ، ولكنها قوانين لصيانة المجتمع والقوانين التى يضعها الله سبحانه وتعالى وهو الخالق العليم بخلقه ، والحكيم فى كل الأمور وهو الحق وهو العدل سبحانه ويريد أن تستقيم الأمور بدون مجاملات وبدون مباهدة وهو سبحانه يريد أن يصون كرامة المرأة ويكفل لها حقها فى أن يكون لكل امرأة رجل يرعاها .

إذن فالتعدد فى الزوجات يحل المشاكل ،وهو كما رأينا لم يفعله إلا قليل من الرجال والله أعلم بالظروف التى دفعتهم إلى ذلك ، وماذا كان يمكن أن يحدث لو لم يفعلوا ذلك ؟

نأتى الآن إلى نقطة مهمة فى هذا الموضوع ، وهى كلام بعض الناس عن أن الله سبحانه وتعالى لا يبيح تعدد الزوجات ، وهم يستدلون بالآيات الكريمة :

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ (النساء : ٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ (النساء : ١٢٩) وهم يقولون إن الإسلام لا يقر التعددية لأنه اشترط العدالة بين الزوجين .

ثم قال الله : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ وهذا نفى أن يستطيع الرجل العدل بين زوجتيه حتى لو حرص على العدل .

نقول لهؤلاء : أحسنوا فهم آيات الله واتقوا الله فيما تقولون ، فإن الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ ﴾ (النساء ١٢٩) .

فحكم التعدد هنا باق لم يبطل .

فلو أن الله يريد إبطال مسألة تعدد الزوجات هذه لكانت الآية قد وقفت عند قوله تعالى : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا ﴾ وتكون المسألة حكماً مطلقاً من الله تعالى .

ولكن قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ ﴾ يلفتنا إلى أن حكم التعدد ما زال باقياً ، فلو كان الحكم قد أبطل لما قال الحق سبحانه (ولو حرصتم) لأنه إذا كان العدل مستحيلاً فعلاً سنحرص ؟ وكيف نحرص على تنفيذ حكم أبطله الله تعالى ؟

إذن فمسألة الحرص على العدل تدلنا على أن الحكم باق بقدر الإمكان وقول الحق سبحانه : ﴿ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ ﴾ يدلنا أيضاً على أن حكم التعدد مازال باقياً ، لأن الله يلفتنا ويوصينا بألا نميل إلى إحدى الزوجتين ونترك الأخرى كالمعلقة ، التى ليس لها زوج ، فكيف نميل نحو واحدة ونترك الأخرى إلا إذا كان مباحاً لنا الزواج بأكثر من واحدة .

وهناك نقطة أخيرة فى هذا الموضوع ينبغى علينا أن نفهمها حق الفهم ألا وهى مسألة العدالة فما معنى العدالة بين الزوجين ؟ هل هى عدالة فى الزمن أم فى الحب ؟

إن المعنى السليم هنا هو أنها عدالة إمكانية ، أى عدالة فى الزمن الذى يقضيه الزوج عند كل واحدة من زوجتيه وعدالة فى المعيشة ، لا يقتر هنا ، ويسرف هناك .

لكن العدالة فى الحب هنا مستحيلة ، لأنها فوق طاقة الإنسان فلم يجعل الله تعالى لرجل من قلبين فى جوفه .

يقول الله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ (الأحزاب : ٤)

وقد قالت السيدة عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله ﷺ يقسم فيعدل ، ويقول : «اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » .

يقصد (القلب)

ننتهى إذن إلى أن مسألة تعدد الزوجات فى الإسلام أمر لم يلزمنا الله تعالى به ، ولكنه أباحه ، وهناك فرق كبير بين الإلزام والإباحة وعرفنا كيف أن التعدد ضرورة اجتماعية كى لا ينتشر الحرام والانحلال فى المجتمع المسلم .

فالتعدد لم يأمر به الله ، وإنما أباحه ، فالذى يرهقه هذا الأمر فلا يعدد ، فالله لم يأمر بالتعدد ولكنه أباح للمؤمن أن يعدد ، والمباح أمر يكون المؤمن حراً فيه يستخدم رخصة الإباحة أو لا يستعملها .

وهنا يجب أن ننتبه إلى حقيقة هى : إنه من الخير أن تكون المرأة الثانية امرأة واضحة فى المجتمع ، ومسألة زواج الرجل منها معروفة للجميع ويتحمل هو عبء الأسرة كلها .

ولابد من تحقيق العدل بين الزوجات ، والعدل المراد هو القسمة بالسوية فى المكان ، أى أن لكل واحدة من المتعددات مكاناً يساوى مكان الأخرى ، وفى الزمان وفى متاع المكان ، وفيما يخص الرجل من متاع نفسه ، فليس له أن يجعل شيئاً له قيمة عند واحدة ، وشيئاً لا قيمة له عند واحدة أخرى .

لابد من المساواة ، لا فى متاعها فقط ، بل متاعك أنت الذى تتمتع به عندها ، حتى أن بعض المسلمين الأوائل كان يساوى بينهن فى النعال التى يلبسها فى بيته ، فيأتى بها من لون واحد وشكل واحد وصنف واحد .

وذلك حتى لا تدل واحدة منهن على الأخرى قائلة : إن زوجى يكون عندى أحسن هنداماً منه عندك .

والعدالة المطلوبة أيضاً هى العدالة فيما يدخل فى اختيارك ؛ لأن العدالة التى لا تدخل فى اختيارك لا يكلف الله بها ، فأنت عدلت فى المكان وفى الزمان وفى المتاع لكل واحدة ، وفى المتاع لك عند كل واحدة ولكن لا يطلب الله منك أن تعدل بميل قلبك وحب نفسك ، لأن ذلك ليس فى إمكانك .

إذن فهذا معنى قول الحق سبحانه : ﴿ **وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ** ﴾ (النساء : ١٢٩) لأن هناك أشياء لا تدخل فى قدرتك ، ولا تدخل فى اختيارك ، كأن ترتاح نفسياً عند واحدة ولا ترتاح نفسياً عند أخرى ، أو ترتاح جنسياً عند واحدة ولا ترتاح عند أخرى .

لكن الأمر الظاهر للكل يجب أن تكون فيه القسمة بالسوية حتى لا تدل واحدة على واحدة .

وإذا كان هذا فى النساء المتعددات ـ وهن عوارض حيث من الممكن أن يخرج الرجل عن أى امرأة بطلاق أو فراق فما بالك بأولادها منه ؟

لابد أيضاً من العدالة .

تم بحمد الله ،،